الفصل الأول
التنمية والبيئة

فى عام ١٩٩٢ اتفق المجتمعون فى قمة الأرض الأولى بالبرازيل على إعلان للمبادئ سمى «إعلان ريو للبيئة والتنمية»، والقراءة المباشرة لهذا الإعلان توضح بجلاء وبدون الحاجة إلى عبقرية فى التفسير أنه لا يمكن بأية حال من الأحوال الفصل بين قضايا البيئة وقضايا التنمية.

ومنذ ذلك التاريخ شاع مفهوم التنمية المستدامة وأصبح يتردد فى كل مناسبة وعلى كل لسان حتى إن كلمة «المستدامة» أصبحت تطلق على كثير من الأنشطة التنموية مثل الزراعة المستدامة والعمارة المستدامة والطاقة المستدامة والسياحة المستدامة وغيرها. والاستدامة هنا تعنى التواصل والاستمرارية حيث لا معنى لأى نشاط تنموى لن تكتب له الاستدامة بحيث تستفيد منه الأجيال القادمة. وهنا يتحقق مبدأ العدالة بين الأجيال وحق الأبناء والأحفاد فى نصيب عادل من الموارد الطبيعية.

فالنظام البيئى يقوم بوظيفة بنك الموارد الطبيعية الذى نسحب منه ما نحتاج إليه من أجل حياة هانئة سعيدة، وهو فى الوقت ذاته يؤدى وظيفة سلة المهملات التى نلقى فيها بمخلفاتنا وفضلات

حياتنا، ولقد خلق الله جلت قدرته هذا النظام في توازن يشهد بعظمته وجبروته إلى أن أفسدناه بحماقتنا وصلفنا وغرورنا، فسحبنا من المخزون أكثر مما يجب، وألقينا من المخلفات ما يفوق قدرة النظام البيئي على الاستيعاب فبدأت المشكلات التي عانى منها الإنسان أكثر من باقي المخلوقات. ثم أفاق الإنسان من غفلته وبدأت صيحات العقلاء تجد صدى لها في أرجاء المعمورة، واقتنع الجميع بأن التنمية الشاملة لا تعني نموا اقتصاديا على حساب الموارد الطبيعية، كما أنها لا تعني نموا اقتصاديا على حساب الغالبية الفقيرة والمهمشة في المجتمع، ولا يمكن الفصل بين قضايا التنمية الاقتصادية والاجتماعية وحماية البيئة. وأنه إذا كان الإنسان هو محور التنمية وهو المستفيد الأول منها، فإن ذلك يعني حقه في بيئة نظيفة صحية له ولأولاده ولأحفاده، ولن يتأتى ذلك إلا بالتنمية المستدامة المتوافقة مع الطبيعة.

ومنذ عام ١٩٩٢ وحتى الآن أصبحت التنمية بمفهومها الشامل هدفا لكل دول العالم. كما أصبحت البيئة أحد محددات القدرة التنافسية في ظل نظام تحرير التجارة العالمية الذي تشرف عليه منظمة التجارة العالمية. وبدأ الحديث عن الأبعاد البيئية في حرية التجارة، وسواء شئنا أم أبينا فسوف نشهد في القريب العاجل قيودا على صادراتنا في أسواق العالم ما لم نراع اعتبارات حماية البيئة سواء كانت تلك الصادرات سلعًا أم خدمات.

فلن نستطيع أن نُسَوِّق منتجاتنا سياحيا وزراعيا وصناعيا ما لم تكن تحمل شهادة الأداء البيئى. وبدلا من صيحات الاحتجاج والغضب من جانب الدول النامية، وبدلا من المكابرة ومحاولات الالتفاف حول ما ارتضاه المجتمع من قوانين لحماية البيئة فى مصر، فمن الأجدى لنا أن نستعد ونعمل بجد وإخلاص للتغلب على مشكلاتنا البيئية وهى كثيرة، لكن حلولها ليست مستحيلة إذ لا ينقص سوى الإرادة والعزم وإعمال العلم والاستخدام الأفضل للطاقات المتاحة ثم قبل كل شىء التعاون بين الجميع، فاليد الواحدة لا تصفق. وفى جريد الأهرام وبعنوان «جريمة على المحور» أطلق كاتبنا الصحفى الكبير «صلاح منتصر» صيحة تحذير لوقف الجريمة التى تتم الآن على جانبى طريق المحور بالاعتداء على الأرض الزراعية وإقامة المئات من المبانى الكئيبة التى تتم بطريقة عشوائية لتضيف جديدا للمناطق العشوائية التى تمت فى غفلة منا خلال السنوات الماضية حتى أصبح نحو ٢٥٪ من سكان مصر يعيشون فى تلك المناطق.. وكلنا نعلم ما تمثله تلك العشوائيات من بؤر لشتى أنواع المشكلات صحيا واجتماعيا وبيئيا.

ورغم الدراسات التى أفاضت فى أسباب نمو العشوائيات وأساليب مواجهتها، إلا أن صرخة الأستاذ صلاح منتصر قد أفزعتنا جميعا لأنها أوضحت لنا ببساطة أننا لا زلنا نائمين فى العسل وأن الكثيرين منا لا يزالون فاقدى القدرة على الفعل فى الاتجاه

الصحيح، وأننا لا نتعلم مثل غيرنا من أخطاء الماضى رغم فداحة تلك الأخطاء التى لازلنا نعانى من آثارها وسوف يعانى أولادنا من بعدنا من تداعيات تلك الأخطاء.

وخلال سنوات مضت شهدنا بكل المرارة عمليات التجريف واسعة النطاق التى تمت للأرض الزراعية لكى يحولها مجموعة من الجهلاء والجشعين إلى الملايين من الجنيهات تدخل جيوبهم على حساب المنة الإلهية التى وهبها الله لنا منذ مئات الملايين من السنين. فطوال تلك السنوات الضاربة فى جذور التاريخ كان نهر النيل العظيم يأتى كل عام بالخيرات تفيض على جانبيه لكى يتشكل فى النهاية هذا الوادى الخصب الذى قامت بجواره أعظم حضارات الإنسانية جمعاء، وكلنا نعلم أنه لولا هذا النهر الخالد ما كانت مصر وما كانت حضارة المصريين.

ولقد تميزت أراضى الوادى والدلتا دائما بأنها من أجود الأراضى الزراعية فى العالم والتى كانت تنتج من خيرات الله جلت قدرته أجود الأنواع وأشهى الأصناف.. وخلال العقود الأربعة الماضية زاد عدد السكان فى مصر زيادات غير مسبوقة منذ فجر التاريخ حيث لم يتعد تعداد المصريين أبدا حاجز ثمانية الملايين نسمة، فلم يستوعبهم الوادى الضيق وبدأت عمليات الاعتداء على الأرض الزراعية أهم ثروات مصر فى الماضى والحاضر والمستقبل.. وشهدت نفس العقود اقتطاع أجزاء كبيرة من دلتا النيل لكى نقيم عليها صناعات ومدن

وطرق ومنشآت كي تستوعب الزيادات المستمرة في السكان.. فتدهورت إنتاجية الأرض في العديد من المناطق، وزاد عليها طبعا جميع أشكال التلوث الناشيء عن الصناعة والزراعة والصرف الصحي وغيره.

ولقد سمعت عالمنا الكبير الدكتور عبد الفتاح القصاص يعرف ظاهرة التصحر بأنها كل ما يؤدى إلى تدهور نوعية الأراضي، وهو ذات التعريف الذى أخذت به منظمات الأمم المتحدة وهى تصيغ اتفاقية دولية لمكافحة التصحر فى العالم.

ومع فقدان الأرض الزراعية كما ونوعا كانت محاولاتنا المتعددة للخروج إلى الصحراء والتى تشكل أكثر من ٩٠٪ من مساحة مصر بهدف زيادة الرقعة الزراعية وزيادة إنتاج الغذاء من أجل سد الحاجات المتزايدة للسكان.. ورغم أن محاولاتنا فى الخروج للصحراء اتسمت فى العديد من الأحيان بالكثير من الدروس المستفادة إلا أن الخلاصة كانت دائما تشير إلى ضرورة الحفاظ على أراضي الدلتا والوادى فهى كما سبق أن أشرت ثروة مصر الحقيقية.

ولا ننسَ فى هذا السياق قضية الموارد المائية وانخفاض نصيب الفرد منها نتيجة أيضا للزيادة السكانية وضرورة الحفاظ على قطرة المياه نقية خالية من التلوث فبدونها لن تكون الحياة، وهكذا كانت الزيادة السكانية سببا فى الاعتداء على الأرض والمياه والنتيجة هى كل ما نعرفه وما لا نعرفه من الأمراض.

ورغم كل ما يبذل للحفاظ على نوعية الأراضى والمياه فى مصر، إلا أن القضية تصبح قضية المستقبل، لذا يجب أن نتعامل معها من منظور استراتيجى يستشرف آفاق ذلك المستقبل لكى يرى خريطة جديدة لتوزيع السكان فى مصر.. وفى لقاء قريب مع عالم الجيولوجيا المصرى العالمى رشدى سعيد طرح علىّ فكرة كان قد نشرها خلال عام ١٩٩٧ وتدعو إلى الحفاظ على الدلتا والوادى من خلال البعد عن النظرة التقليدية الموروثة والتى ربطت المصريين جميعا بدلتا النهر ووادية لكى نخرج إلى كل بقعة فى أرض مصر ليس بالضرورة لكى نزرعها ولكن لكى نقيم عليها حضارات جديدة باستخدام ما توفره لنا تكنولوجيا عصر المعلومات، وما تتيحه لنا كنوز مصر من الغاز الطبيعى ومن مصادر الطاقات المتجددة كالشمس والرياح.

إن دعوة رشدى سعيد تستحق الاهتمام فقد تكون المخرج من مأزق السكان والتنمية والموارد الطبيعية هنا فى مصر.. ذلك المأزق الذى يسعى العالم أجمع لكى يجد له حلا يفى بحاجات السكان ورفاهيتهم دون التفريط فى رصيد الموارد الطبيعية هبة الخالق وحق الأبناء والأحفاد.

ولكن إلامَ يدعو رشدى سعيد؟

إنه يدعو إلى إعلان الوادى والدلتا محمية طبيعية. يجب أن نتعامل معها بحرص وحزم حتى نحافظ عليها ونسلمها للأبناء

والأحفاد ميراثا طبيعيا سليما كما تسلمناه من الآباء والأجداد، وتتلخص الفكرة فى أن الصحارى المصرية التى تمثل أكثر من ٩٠٪ من مساحة مصر يمكن أن تستغل فى عمليات التنمية الصناعية اعتمادا على مصادر الطاقة المتوافرة والحمد لله من بترول وغاز طبيعى وطاقة شمسية وطاقة رياح، وبدلا من أن ننقل تلك المصادر من أماكن إنتاجها - كما هو حادث الآن - إلى أماكن استهلاكها فى الدلتا والوادى فإنه من الأفضل أن ننقل مشروعات التنمية بالقرب من تلك المصادر وعندئذ يمكن بناء مجتمعات عمرانية جديدة تستوعب الملايين من السكان بعيدا عن الأرض الزراعية، وبدلا من بناء مدن صناعية جديدة بالقرب من الأرض الزراعية، فإنه من الأفضل أن نبنى تلك المدن بعيدا فى الصحراء فتتحول إلى مراكز جذب للسكان وإلى مراكز للإنتاج الصناعى، وبذلك يكون خروجنا هذه المرة للصحراء ليس من أجل استصلاحها بهدف الزراعة، ولكن من أجل البناء والتعمير والتصنيع، وبالله عليكم أين هو المنطق فى أن نعتدى على أرضنا الزراعية الطيبة فتتدهور إنتاجيتها نتيجة للزحف العمرانى، بالإضافة إلى جميع أشكال التلوث البيئى الناشئ عن النمو الصناعى والسكانى بالقرب من تلك الأرض ثم بعد ذلك نسعى إلى الصحراء، ونبذل الجهد والمال لكى نستصلحها لكى نسد فجوة الغذاء التى نعانى منها ؟

فى لقاء قريب مع د. على الصعيدى حينما كان وزيرا للكهرباء والطاقة، استمعت إليه يطرح فكرة إنشاء مجموعة من المدن الجديدة التى تعتمد كلية على مصادر الطاقة المتجددة، وصحارينا المصرية مؤهلة تماما لإنشاء تلك المدن الخضراء التى تعتمد على مصادر الطاقة النظيفة التى لا ينتج عنها تلوث ومن الممكن أن تعتمد تلك المدن كلية على الطاقة الشمسية وطاقة الرياح أو طاقة الهيدروجين الذى يتوقع له أن يكون وقود القرن الحادى والعشرين، ومن الممكن أن يقام بالقرب من تلك المجتمعات الجديدة مراكز للصناعات المتقدمة التى تستخدم أحدث ما أفرزته ثورة المعلومات من تقنيات باستخدام الأقمار الصناعية، وكل المطلوب هو أن نغير من نظرتنا التقليدية للصحراء بأنها جدباء لا حياة فيها، فمن الممكن أن تقوم فيها حياة جديدة غير تقليدية لا تحتاج إلا إلى نظام جيد للمواصلات والاتصالات لكى نربط تلك الصحراء بالوادى والدلتا حيث نزرع ونحصد وننتج ما نحتاجه من غذاء بعيدا عن استخدام الكيماويات والمبيدات وغيرها.

وهناك فى صحراء نيفادا الأمريكية أقام الأمريكيون عالما من الإثارة والبهجة حتى أصبحت مدينة لاس فيجاس أكبر المدن الأمريكية نموا خلال العشرين عاما الماضية، ويرى الزائر لهذه المدينة على مرمى البصر صحراء جدباء ليس فيها حياة بينما الطائرات تنقل الآلاف من الزوار لتلك المدينة التى أصبحت عاصمة القمار فى

العالم، وهـذه ليسـت طبعـا دعـوة لتقليـد هـذا النمـوذج فـى التنميـة ولكننى أذكر هذا للتأكيد على أنه من الممكن أن نخرج للصحراء ليس بالضرورة لكى نزرعها كما تعودنـا ولكـن لكـى نعمرهـا ونقيـم عليـها حياة جديدة لا تعتمد على الزراعة بشكل أساسـى، إن قضيـة إنتـاج الغذاء هى قضية حياة أو موت لكل الشعوب وإذ أنعم الله على مصـر بتلك الأرض الطيبة الخصبة، فإن الحفـاظ علـى تلـك الأرض تصبح واحدة من قضايا الأمن القومى المصرى حيث لا تهاون ولا اسـترخاء، فهل نطرح تلك القضية للمناقشة؟

وهل نطرح فكرة رشدى سعيد للحوار الموضوعى البنـاء بعيـدا عـن الأفكار الجامدة والموروثات التقليدية، ولنشرك فى الحوار علماء مصر ومفكريها فى جميع فـروع المعـرفة. إنها قضيـة مـن قضايـا المسـتقبل ولا يجب أن نتعامل معها بمنطق الماضى ومفرداته، بل بلغة العصر، ولنشرك فى الحوار أيضا شباب مصر أصحاب المستقبل فى هذا البلد فهم وحدهم القادرون على صياغة جديدة لهذا المستقبل بإذن الله.